قراءة في سيرة عمر بن عبد العزيز والملك الظاهر بيبرس، من الوهم البيوغرافي إلى التخييل السياسي

د. حمدي خليفة عبيد *

تاريخ تقديم البحث: ٤/٤ /٢٠١٩م. **تاريخ قبول البحث: ٢٠١٩/٦/١١م.**

ملخص

يتناول مبحثنا هذا بالدراسة السيّر المفردة للحكام. فهي ضرب من السرد المرجعيّ، يوهم في ظاهره بما يحمله من مؤشرات مرجعيّة، أنّه راسخ القدم في القطاع الواقعي من السرد العربيّ القديم، إلاّ أنّه في حقيقة الأمر يأخذ بأسباب تخييل القوّة وفق التصوّرات الرسميّة للسّلطة. وسواء أكان بطل السّيرة صاحب بأس وغلظة أم كان صاحب نسك وتعفّف، فإنّ صورته لا تخرج عن الحسّ المشترك والمخيال الجمعيّ. ذاك هو الجسد السياسي، إن هو إلا وهم بيوغرافي وتخييل سياسي مادامت هويّة الشخصيّات الحاكمة قائمة على الازدواج والتراكب. فهي صورة وضرب من التخييل الّذي ترعاه مؤسّسة صناعة الاعتقادات من مثل الكتابة عن السلاطين سواء أكانت تخييليّة أم مرجعيّة.

الكلمات الدالة: السيرة، سياسي، شخص تاريخيّ، جسد رمزي، أبّهة الملك، القوّة

---

* كليّة العلوم والآداب، طبرجل- جامعة الجوف، المملكة العربيّة السعودية.
حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

A Reading of the Biography of ʿUmar ibn ʿAbd al-ʿAzīz and al-Malik al-Ẓāhir Rukn al-Dīn Baybars, from Biographical Illusion to Political Fiction

Dr. Hamdi Khalifa Abid

Abstract

In this article we have adopted an open approach, relying onRepresentation and Political Fiction, which makes the Identity of the ruling personalities composite of a Natural body and a Political one.In this context, we studied two Biographies of two structurally different political figures, the Biography of ʿUmar ibn ʿAbd al-ʿAzīz and the Biography of al-Malik al-Ẓāhir Rukn al-Dīn Baybars.

The first is of a Purpose-Built Structure whose hero is drowning in asceticism and the second with a Narrative Structure marked by violence.Whatever the difference, they have a common denominator: thePolitical Body. The Purpose-Built Structure covers the weakness of the Political Body with great hermitism. However, the biography of the Narrative Structureis covered with power.

That is the story of the Political Body between Biogeographic Illusion and Political Fiction.

Keywords: Political Fiction, Purpose-Built Structure, Narrative Structure, Power, Symbolic Body

تمهيد:

تُعدّ السّيرة واحدة من أكثر هذه الأجناس السّرديّة المرجعيّة « Référentiel »[١] ظهورا في التّراث العربيّ وتتميّز من جهة الموضوع وعلاقته بالأديب المؤرِّخ، بخصائص قد لا تتوافر في الكتابات التخييليّة« Fictionnel »[٢]. لذلك يختلف تصوير حياة شخص حقيقيّ مشهور من الولادة حتّى الوفاة عن عرض مقاطع منحياة شخصيّة غير مرجعيّة. وقد يرجع هذا الأمر إلى المقاصد البعيدة المستكنّة طيّات الخطاب السيريّ الّذي ينعقد على مكوّن الشّخص وإن كانت الوقائع واجهته الأولى. وهو ما يجد صداه في السّير المفردة للعلماء والمتصوّفة والشخصيّات الحاكمة، أعني الأمراء والخلفاء والملوك، سواء أكانت قائمة على التنضيد الغرضيّ أم التتابع الحدثيّ.[٣]

ولعلّ المقاصد المنوطة بالخطاب السيريّ تأخذ بأسباب تخييل القوّة وفق التصوّرات الرسميّة للسّلطة. بهذه القصديّة تختلف سيرة الحكّام عن الأنساب والتراجم والمناقب، وتتميّز من سائر الكتابات المرجعيّة، مادام التخييل يملك عليها أمرها ويوجّه مقاصد تأليفها، وطالما أنّ خطابها التاريخيّ يقيّد

(١) ابن منظور، محمّد بن مكرّم، لسان العرب، المجلد ٥، مادة (ر، ج، ع)، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط١: ١٩٨٨، ص ص ١٤٨-١٥٣.إذا نظرنا في مادّة (ر.ج.ع) في اللّسان، وجدناها تحيل على حقلين دلاليين. يفيد الأوّل معنى العودة والإيّاب، ويشير الثّاني إلى معنى المكان، ويقصد به مكان الرّجع أو زمانه وجمعه مراجع أمّا إذا نظرنا في (المرجع) référence اصطلاحا فإنّنا نجد أنه: يدلّ على "ما يحيل عليه النّصّ الرّوائي من كائنات كالشّخصيَات والأمكنة...ويكون عمل الإحالة عن طريق الخطاب فيكون الخطاب بذلك مرجعيّا discours référentiel. وينهض بدور تعيين ما هو خارج عن نطاق القول من عناصر غير لغويّة سواء أكانت ملموسة أم مجرّدة، منها يمكن أن نذكر أسماء الشّخصيّات التّاريخيّة والأمكنة المعلومة المواضع، والأزمنة المعروفة التّاريخ. انظر الخبو، محمد، الخطاب الإحالي في الرّواية، تونس صفاقس دار نهى للطباعة والنشر ٢٠٠٦، ص١٨.

(٢) تعدّ مقولة التخييل واحدة من مقولات النقد ومكوّنات نظريّة الأدب واشتقّ لفظ fiction من اللّفظ اللاّطينيّ fingere، ويعني سوّاه وتصرّف فيه ولا يعني هذا أن التحييل خروج إلى الخيال والانقطاع عن المرجع بل وظّف للدلالة على الإحالة حتّى وإن لم يمتلك موضوع القصّ وجودا ماديّا ذلك أنّ الحقيقة الأدبيّة تختلف عن الحقيقة المنطقيّة ولا شيء يبرّر إخضاع الأولى لمعايير الثانية ونظمها. انظر:
Pavel Thomas: (1988) Univers de la fiction, Editions du Seuil, pour la tradition française. Cet ouvrage, dont el titre original est ‘ Fictionnel Worlds’(Harvard University press, 1986)a été traduit et remanié à l’intention du public français par l’auteur.p 9

(٣) نميّز بيبن منهجين في كتابة السيرة الغيريّة أمّا المنهج الأوّل فيهض على اختيار الموضوع أو الصفة ويجعل منها محورا دلاليّا يؤلّف بين سائر الأخبار الّتي تنتمي على نفس الغرض أمّا التتابع الحدثي فيقوم على سرد الوقائع المتتابع زمنيا على نحو ما نجده في كتب المؤرّخين.

الحدث بالحرف تقييدا يجعل من تشكّل الصّورة الرسميّة لصاحب السلطة أفقا يُستشرَف وكيف لا تحضر هذه الصّورة في أفق الأديب المؤرّخ والحال أنّه صنيعة السّلطان، لا منزلة له خارج سوقه.

بناء الفرضيّات:

تعرض السّيرة المفردة للشخصيّات الحاكمة حياة شخص غير عاديّ. فهو ينهض بعدّة أدوار تؤلّف بينها الوظيفة السياسيّة الّتي تجلوها أعماله وهو ينظّم حيّاة الجماعة ويخطّ لها الخطط ويستصلح لها مجالها الحيويّ ويفعل فيها بسيفه وحلّه وترحاله بين الأقطار والأقوام. وبفضلها يغدو شخصا سياسيّا ذا ماهية مختلفة عن سائر النّاس. فهو شخص مركّب من جسدين، جسد طبيعيّ منذور للبلى والفناء تستر ضعفه وعرضيّته مكوّنات الأبّهة السلطانيّة، ويَجِدُّ الأدباء وأسياد الحقيقة وصنّاعها في ستره بما يكتبونه عن الشخصيّات الحاكمة، فلا يظهرون منها إلاّ الجسد الرمزيّ الّذي تعمل مؤسّسات صناعة الاعتقاد على تثبيته وإظهاره بالاختزال والتجريد والاستجابة لإكراهات الكتابة السلطانيّة المؤسسيّة الّتي تضبط للكاتب حدود الأقوال الممكنة والممتنعة. وقد تملي عليه ما ينتقيه من الوقائع وما يسكت عنه.

ولما كانت الكتابة عن حيوات الحكّام محكومة بنظام الخطاب وغير قادرة على استغراق حياة الشّخص من الولادة إلى الوفاة بطمّ طميمها، وكانت علاقة الكاتب أو المؤرّخ بصاحب السّلطة مشدودة إلى الوظيفة المؤسسيّة أو بالأحرى إلى سوق السّلطان واقتصاده، بطلت كتابة سيّر الحكّام أن تكون كتابة تاريخيّة مرجعيّة بالمعنى الحرفيّ لكلمة مرجع، إذ إنّ كتابة سير للحكّام تكتسي طابعا إنتاجيّا معقودة الغاية، لا على إنتاج صورة تطابق الشّخص التّاريخيّ، فتصبح ضربا من المحاكاة لأصل مرجعيّ على نحو آليّ ساذج، وإنما على إنشاء صورة تطابق التّصوّر الرّسمي للقوّة. وهو ما قد يبرّر ما بين السّير من تشابه إن في البنية أو الأغراض. ويستعيد كاتب السّيرة،الواحدة منها ليقدّ منها لحاكمه صورة تؤلّف بين قيم البأس وقيم الجود وما يجري مجراهما من القيم كالعدل والحلم. وتغدو سيرة الشخصيّة الحاكمة في ضوء هذا التصوّر مرايا ينصبها الكاتب لتظهر الصّورة الّتي تشفي غلّة كلّ حاكم متطلّع إلى مطلق القوّة والصّورة الأمثل.

تستقيم الكتابة عن الشخصيّات الحاكمة ضربا من التخييل «Fction » بما يدلّ عليه التخييل من معاني التصرّف حتّى يغدو موضوعه قابلا للتمثيل، لاسيّما أنّ السّلطة والشخصيّة الحالكمة تنتميان إلى نسق واحد، هو نسق الاعتقاد. ولا يمكن لهذا النسق أن يدرك إلاّ بالتخييل وفي التخييل. وهو ما يمكن أن توقعه كتابة سير الحكّام من آثار بصناعتها للتخييلات السياسيّة الّتي ترعاها المؤسّسة

السّاهرة على تصريف القول ومراقبته. فالسّلطة تقبع إلى جانب كلّ من يحترف الكتابة وينهض بوظيفة النقل والإبلاغ.

على هذا النحو تتوضّح ملامح المقاربة الّتي نروم انتهاج سمتها في بناء هذه المقالة، وهي مقاربة منفتحة انفتاح السّلطة وتشابك علاقاتها، تتفيّأ الظلال من السيميولوجياوبراغماتيّة الخطاب التاريخيّ[١] والتأويلات الّتي تُسْتَقْطَرُ من ضمنيات أقواله.

المقاربة أو منهج تدبّر السيّر الغيريّة:

تتوزّع المناويل الّتي تعالج الكتابات السيريّة على ضربين: واحد إنشائيّ يعنى بكيفيّة صناعة القصّ. أمّا الثاني فيهتم بالوظيفة والمقصد. وهما منوالان مختلفان، منوال تفسيريّ ومنوال تأويليّ. ويقول العادل خضر محدّدا الأصول النظريّة لهذا المنوال:

«فكلّ نظريّة سرديّة لابدّ أن تواجه خيارا «Alternance لا مفرّ منه فهي إحدى اثنتين إمّا أن تكون نظريّة سرديّة تفسيريّة (أو ذات نمط تفسيريّ) تعتمد منوالا تفسيريّا في وصف الأبنية السرديّة المجرّدة، وتستخدمه لتشيد نظريّة ذات مرمى علميّ أي نظريّة تستجيب للشروط الأساسيّة والضروريّة الّتي ضبطتها الإبستمولوجيا ... وإمّا أن تكون نظريّة سرديّة تأويليّة (أو ذات نمط تأويليّ) تتعامل مع مقولة القصّ بوصفها حلاّ شعريّا "Poétique" وتأويليّا لمعضلات شعريّة عديدة كالمكان والعمل والذات[٢].

---

(١) تُعنى السيميائيّة أو الدلائليّة بالعلامة سواء أكانت لسانيّة أم غير لسانيّة.ومن ثمّ تهتمّ بالأنظمة الدّالة الّتي أضحت الإحاطة بموضوعها من الأمور العسيرة. إلاّ أنّها تطمح إلى أن تكون المجال الّذي تلتقي فيه هذه الاختصاصات وتتحاور لأنّ القاسم المشترك بينها هو الدّلالة. انظر

Algirdas Julien Greimas, Sémantique structurale, Coll, Formes sémiotique, P, U, F1966

أمّا البراغماتيّة أو التداوليّة فاتّجاه بحثي يدرس الأعمال الّتي يحقّقها القول وما يسرّه المتكلّم من نوايا ومقاصد انظر:

Moeschler Jacques et ReboulAnne, Dictionnaire, Encyclopédique de Pragmatique, Ēditions du Seuil, 1994, p.17

(٢) خضر، العادل، يحكى أنّ... مقالات في التأويل القصصيّ، تونس سلسلة مقام مقال، دار المعرفة للنّشر، ٢٠٠٦الطبعة الأولى، ص. ص٢١- ٢٣.

لا يتوافق المنوال التفسيريّ كلّ التّوافق مع دراسة جنس أدبيّ، نعدّه من صميم الظاهرة السلطانيّة الّتي لا يمكن أن نحلّلها أو نحلّل متعلّقاتها من نصوص ووقائع أو نميّزها من سير رجال العلم والدّين والفقه إلاّ بالتّأليف بين المنوال التفسريّ والمنوال التأويليّ، لاسيّما أنّ سير الحكّام منغرسة في الحسّ المشترك الّذي يختزل التاريخ في أعمال الشخصيّات الحاكمة. وإذا استعدنا علاقة الأديب بالسّلطان والأثر الّذي يمكن أن يحدثه صانع الأخيلة والرموز في قرّائه، وجدنا أن المنوال الّذي ينخرط في توضيح هذه العلاقةلا يكون إلاّ تأويليّا. هذا إذا وضعنا في الحسبان أنّ الشخصيّة الحاكمة، مركّبة من جسدين حسب استعارة إرناست كونتروفيتش «Ernst Kantorowicz جسدا الملك «Les deux corps du roi.[1]

يعني هذا أن هويّة شخص الحاكم مختلفة عن سائر الهويّات، إذ إنّ بمجرّد تقلّد المنصب السياسيّ يغدو شخصا مركّبا من جسدين، الأوّل منذور للهلاك والفساد والثاني صوفيّ من نسق الرّوح. إنّ الأخذ بمفهوم الشخصيّة المركّبة يمكّن كلّ مشتغل بالسيّر المفردة للحكّام من تبنّي زاوية نظر تتوافق مع هويّته المزدوجة. وتأسيسا على هذا الاعتبار تضطلع سيّر الملوك والحكّام والقادة والأمراء بوظيفة شبيهة بالوظيفة الإنجازيّة[٢]، ألا وهي إنشاء التخييلات السياسيّة الّتي تصنع السّلطان وتظهره في صورة الكائن الفريد الّذي يعمل لصالح المجموعة بدرء الأخطار الّتي تتهدّدها فينشر ديانتها وينظّم معاشها ومعادها.

وقد لا نجانب الصّواب إذا ذهبنا إلى أنّ دراسة السّيرة العربيّة القديمة دراسة أدبيّة في ذاتها ولذاتها مستقلّة عن سياقها الاجتماعيّ والسّياسيّ والثّقافي، لا تقدرنا على تبيّن وجوه الإفادة والوجاهة فيها. فهي بطبعها نصّ مستعص على الانغلاق، لأنّها تتّصل بأشخاص لهم وجود تاريخيّ. لذلك من المستحسن أن نقاربها في ضوء نظريّة التواصل الأدبيّ الآخذة بأسباب تحليل الخطاب ومقتضيات القراءة التداوليّة، أو ليست السّيرة خطابا يعمل الكاتب بواسطته على التّواصل مع الآخرين والتّأثير فيهم. ومن ثنايا هذا الأثر يجد السّلطان طريقه ليخلّف هو الآخر أثره في رعاياه. فالسّرد لمّا يقترن بالشخصيّات الحاكمة يغدو من قبيل الحجاج غير المباشر وتتحوّل الفصول إلى حجج متنوّعة، ما إن

---

(1) KantorowiczErnst, 1989, Les deux corps du roi, essai sur la théologie politique au moyen âge, Traduit de l'anglais par Jean -Philippe genet et Nicole genet, Paris, Gallimard, Nrf Éditions.

(٢) هو أحد مفاهيم المقاربة التداوليّة الّتي تعنى بعلاقة المتكلّم بما يصدره من أقوال وما يروم إنجازه بها من أعمال

يراجع في هذا السياق :

MoeschlerJacques etReboul Anne, EncyclopédiqueDictionnairede Pragmatique, op.cit, 1994, p.17.

تثبت تعالي الشخصيّة الحاكمة حتّى تصبح مكوّنا من المكوّنات البنائيّة للاستراتيجيا السلطويّة وتغدو أصلا من أصول الاستبداد، فتحمل الآخرين على الإذعان إذ إنّ السّلطة ظاهرة اعتقاد. وإذا نزلنا السّيرة في إطار سيميولوجي ألفيناها نظاما من العلامات يظهر من الشّخص الطبيعيّ ذلك الجسد السياسيّ ويتحوّل به من الوجود الماثل غير الممثّل إلى الوجود الماثل الممثّل. وبهذا التصوّر تتّضح ملامح إشكاليتنا. فنحن لا نكتفي بسؤال كيف تكتب السّيرة بل نضيف إليه سؤالاً لم تصنع السّير؟

المدوّنة:

لا ننكر أنّ السّير المفردة للحكّام تنتمي إلى القطاع المرجعيّ من السرديّة العربيّة القديمة الّتي تتوزّع على المرجعيّ والتخييليّ. إلاّ أنّ النصفة تقتضينا ألاّ نجنح إلى هذا الاختزال المخلّ بسبب ما بينهما من حدود رجراجة، قد لا تتّسع مقالتنا لتدبّر هذه القضيّة النقديّة(١).

لقد عقدنا العزم على الاشتغال بمدوّنة تتوزّع على سيرتين: الأولى سيرة عمر بن عبد العزيز رواية الإمام مالك بن أنس وأصحابه.(٢) أمّا الثانية فهي سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر(٣). ولعلّه من المفيد أن نشير إلى أنّ السيرة الأولى تنهض على تنضيد غرضيّ تُصْطَفى فيه الأعمال الّتي تناسب صورة الملك العادل البعيدة عن كلّ آثار مكوّنات الأبّهة الملكيّة، معنى ذلك أنّ مؤلّفها لا يحتفي بالحدث وإنّما يهتمّ بمكوّن الشخص الطبيعيّ. فقد جدّ في إقامة علاقة بين الملك وشخصيّات بدت سلطته عليها ضعيفة. وإذا بالأعمال المنتقاة بسابقية الإضمار والترصّد، تتحوّل إلى مرايا لا تظهر من صورة عمر بن عبد العزيز إلا ذلك الجسد الطبيعيّ الفاني المبذول للفناء. وهذا الأمر ما

(١) ولئن كان هذا التّصنيف شائعا في الدّراسات السرديّة فإنّه لا يراعي الخصوصيّة النوعيّة للشخصيّة الّتي تدوّن السّيرة حياتها بل إنّه يقيم نوعا من التّطابق بين الشّخص التاريخيّ والشّخص السياسيّ الّذي تنحته السّيرة ذاتها انطلقا من تصوّر رسميّ للسّلطان تعمل مؤسّسات صناعة الاعتقاد على إدامته. وإذا رمنا التمييز بين ضروب القصّ فلنقرّ أوّلا بمركزيّة التخييل وبأنّ كلّ قصّ تخييل. ثمّ فلنميّز القصّ المنشئ للتخييلات القصصيّة مثل الخرافة والرواية والأسطورة من القصّ المنشئ للتخييلات السياسيّة مثل السّيرة والملحمة والآداب السلطانيّة وأخبار الملوك والمدائح وغيرها. وهي أجناس أدبيّة ذات وظيفة سياسيّة، تنشئ التخييلات السياسيّة وتعيد إنتاج التصوّر الرسميّ للقوّة وترسم صورة السّلطان في مرآة الأديب.

(٢) أبو محمد، بن عبد الله بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، رواية الإمام مالك بن أنس وأصحابه، رواية ابنه أبي عبد الله محمّد، نسخها وصحّحها أحمد عبيد، القاهرة، مصر، مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٩٧٨.

(٣) محيّ الدين، بن عبد الظاهر، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٧٦.

من شأنه أن يجعل الخطاب السريّ خطابا منتجا لوهم بيوغرفي«Illusion » Biographique [١] يستعيد على شفا الغياب ســــيرة النبيّ العربيّ من جهة طابعهـا البشريّ. وقد لا نجانب الصواب إذا ذهبنا إلى أنّ سيرة عمر بن عبد العزيز هي سيرة الملك العاري« Roi nu» لا تُظهر منه إلاّ جسده الطبيعيّ. أمّا السّيرة الثانية فتنهض على انتقاء مخصوص لمجموعة من الأخبار والأحداثالّتي تتابع تتابعا زمنيّا بعيدا عن العليّة والسببيّة. وكيف لا تكون على هذا النحو والحال أن مقصد صاحبها من التأليف – وهو خادم السلطان وصنيعته– صناعة صورة تناسب التصوّر الرسميّ للقوّة وتؤهّل صاحبها للحكم وتثبّت دعائمه. بهذا الاعتبار يكون هذا الضرب من السّير، واحدا من أشكال التمثيل السرديّ التاريخيّ الّتي تسوّي للملك صورته أو بالأحرى جسده السياسيّ في مرايا أدب السيرة. ومن ثمّ نتبيّن ملامح التخييل السياسيّ في السّيرة، هذا إذا أخذنا في الاعتبار أنّ التخييل صناعة لضرب مخصوص من الحقائق الخطابيّة لا المنطقيّة الخاضعة لمقولات المنطق كالضرورة والاحتمال والصدق المرجعيّ.

القسم التطبيقي:

١. سيرة التنضيد الغرضيّ

تنهض هذه السّيرة على ضرب من التحويل يجلوه الميثاق السّيري والمسار السرديّ والبناء الغرضي. وهو ما سنعمل على بيانه في الفقر الآتي ذكرها.

٢. الوضعيّة الخطابيّة والميثاق السيريّ

تتوزّع مراتب التحمّل الّتي يستهلّ بها الراوي سيرة عمر بن عبد العزيز على ثلاثة مستويات، القول المنسوب إلى أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم مؤلّف السّيرة الّذي يرويها نقلا عن أبيه. ومن ثمّ يجعل من ذاته عونا سرديّا وحلقة من حلقات الرواية ومرتبة من مراتب تحمّلها. أمّا المستوى الثاني والثالث فحديث مروي عن بعض الصحابة الّذين يشتركون في رواية ذات الأخبار والوقائع ويتقدّمهم الصحابيّ مالك بن أنس ويتبعه اللّيث بن سعد وسفيان بن عُيينة... وبفضل تتابع

(١) يقصد بالوهم البيوغرافي الأثر الّذي توقعه بنية السيرة واتباعها مسار حياة الشخص في القارئ، فتحمله على البحث في النصّ الأدبيّ عن مؤشرات حضور كل ما يمتلك وجودا مرجعيّا أو يتبنى مفهوما متهافتا للتاريخ أي اختزاله في تتابع مجموعة من الأحداث. انظر:
Bourdieu, Pierre, L'illusion biographique. In: Actes de la recherche en sciences sociales. juin 1986, Vol. 69-72.

هذه الحلقات تعقد السيرة علاقة استرسال مع مدوّنة الحديث وتدلف بمتلقيها إلى فضاء الاعتبار والاتعاظ والتعبّد. فيستقرّ في صدره أنّ السّيرة جماع عبر وحكم. وهو عمدة المعاني اللغويّة لمادة (س، ي، ر) وما يقترن بها من معاني الاحتذاء والنسج على المنوال. فالقدوة لا يكون من فئة المجاهيل والمعذّبين في الأرض. ولا يمكن أن يتصوّر وجود سيرة للمهمّشين في المجتمعات ذات البناء الهرميّ.

إلاّ أنّ الراوي رغم تصريحه بجمعه أخبار عمر بن عبد العزيز، لم يلتزم برواياتها كلّها فقد لجأ إلى الانتقاء إذ قال: «فكان ممّا ذُكر من ذلك أنّ عمر بن الخطّاب... »[١]. ويعني هذا أنّه يدخل شخص عمر بن عبد العزيز التاريخيّ في مسار من التحويل والتزويق. فتنتقض منذ البداية فصول الميثاق السيريّ خدمة لبناء تخييل سياسيّ يتوافق مع تصوّر رسميّ للسلطة، يستعيد على شفا الغياب نموذج النبوّة والخلافة الراشدة. وتتضّح معالم هذا التوافق منذ بداية السّيرة من خلال ما نسمه بالنشأة المفارقة[٢].

محصّل هذه النشأة، أنّ خبر ولادة عمر يؤصل نسبه في عالم الصلاح والتقوى من جهة وعالم الأشراف والأسياد من جهة ثانيّة. فجدّته لأمّه، أمّ عاصم، رفضت على فقرها وغياب الرقيب خلط اللّبن بالماء. يقول الراوي: «ولدت بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فتزوّجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأتت بعمر بن عبد العزيز [٣] ويزداد مدى تعالي النشأة المفارقة بنقل مجموعة أخرى من الأخبار، ينعقد مدارها على الحلم والفِراسة والعِرافة والنظر بنور الله استباقا للحدث، يقول الراوي: «أخبرني اللّيث بن سعد أنّه كان يقال: الفراسة فراسة العزيز في يوسف عليه السّلام حين قال ائتوني به أستخلصْه لنفسي. فلمّا كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين' وفراسة عمر بن الخطاب في الهلاليّة حين قال لولده تزوّجها والله ليوشكنّ أن تأتي بفارس يسود العرب. فأتت بعمر بن عبد العزيز. »[٤]. ويقول أيضا واصفا حلمه: «واستيقظ عمر من نومه فمسح النوم عن وجهه وعرك عينه وهو يقول: من هذا الّذي من ولد عمر يسمّى عمر يسير بسيرة عمر، يردّدها مرّات» [٥].

(١) أبو محمد، بن عبد الله، بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، م.م، ص. ١٩.

(٢) يُقصد بالنشأة المفارقة، النشأة الإعجازيّة أي الولادة المحفوفة بالأخبار العجيبة، على نحو ما نجده في سير الأنبياء... وتكتسب طابع المفارقة هذا من العلاقة الّتي تعقدها مع قوانين الطبيعة والمنطق الماديّ.

(٣) المرجع نفسه، ص. ٢٠.

(٤) أبو محمد بن عبد الله بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، م.م ص ٢٠

(٥) المرجع نفسه، ص. ٢٠

إذن جوهر هذا الميثاق، بناء السّيرة على أساس التصوّر الرسميّ للسلطان الّذي يحظى فيه الرّسول بمنزلة المنوال والنّموذج القابل للمحاكاة، وقد تحضر إلى جانب هذا النّموذج الّذي يحاكيه الأديب السلطانيّ ويعيد تصريفه بعض النّماذج الأخرى الّتي تذكرنا بأشراف العرب وساداتها.

٣. المسار السرديّ وملامح التحويل:

لا يجد قارئ هذه السّيرة عناء كبيرا في ملاحظة عدم اعتمادها على تركيبة حدثيّة تخضع لبناء التتابع أو التصعيد الدرامي القائم على التعرّف «Reconnaissance»والانقلاب «Renversement» «أي التحوّل من الدعة إلى الشقاء أو الحزن إلى الفرح إذ إنّها تنهض على اختيار مجموعة من الوحدات الخبريّة غير المتتابعة، لا رابط بينها عدا وحدة الغرض أو الموضوع الّذي تعيّنه الحاشية، حتّى أنّ الراوي لا يجد كبير الحرج في رواية أخبار متقدّمة أو متأخرة عن الهنا والآنا لسرديين أو قد يسوق جملا سرديّة يبلغ معها المدى السرديّ نهايته بموت صاحب السّيرة، من ذلك قوله بعد أن عرض نشأته ونتفا من أحواله: «فلم يزل على ذلك حتّى قبضه الله عزّ وجلّ »[١] زد على ذلك أنّ الأخبار المتعلّقة بوفاته تتخلّل الوحدات الخبريّة الّتي تصف عدله وتقواه وتصوّر قبضه على نحو فيه الشيء الكثير من الصناعة والأسطرة، فهو ينشأ نشأة إعجازيّة ويقبض قبضا لا يقلّ تعاليّا عن ولادته وتبكيه نساء الإنس والجنّ[٢].على رغم الحضور الباهت لمنطق التعاقب، تخضع السّيرة لمسار سرديّ يستمدّ رواءه من هويّة الشخصيّات الحاكمة المركّبة. ويمكن أن نسم المنطق الّذي ينتظم هذا المسار بمنطق الازدواج الهويّ أو التراكب الجسديّ. وإذا ما توسّلنا به، ظفرنا بما من شأنه أن يبرّر جمع شخصيّة عمر بن الخطاب بين ملامح القوّة ونفاذ القرار من جهة وصفات الضعف الماديّ والنفسيّ من جهة ثانية. فعمر كثير البكاء ولا يعمل بأخلاق الملوك والأمراء الّذين يتوارون عن الناظرين لمّا يعتري جسدهم الضعف كالخمول والتثاؤب حتّى لا يَخِفُّون في عيون رعيّتهم. فقد اقتضت مراسم الأبّهة أن توجدستارة في مجلس الخليفة ترفع إذا دخل النّاس عليه وتمدّ إذا أريد صرفهم[٣].

معكوسا، فلم يكن شأنه شأن الملوك والأمراء الّذين يطفو على صفحات جسدهم الطبعيّ، ذلك الجسد الصوفيّ السياسيّ الّذي لا يرى إلا في العلامات وبالعلامات وبكل مكوّنات مسرحة السلطة،

(١) المرجع السابق، ص. ص ٣٤.
(٢) المرجع نفسه، ص. ٩٩.
(٣) الصابئ، أبو الحسن هلال بن المحسّن الصابئ، رسوم دار الخلافة، تحقيق مخائيل عوّاد، بغداد دار الرائد العربيّ، الطبعة الثانية ١٩٨٦

من أعمال وحركات وعناصر سينوغرافيّة(١). فهو لا يدخل مجال الإدراك إلاّ بفضل ما ينتجه من آثار في من حوله. فهو إلى ذلك، جسد ينضح تشريفا وتنبيلا وأبّهة ويبعث الرهبة في الداخلين والخارجين عليه. وخلافا لهذا المسار الّذي تُمَثِّلُ لحظة التنصيب والبيعة أسّ تحوّله، خسر عمر بن عبد العزيز هويّته السياسيّة الملوكيّة بمجرّد أن ولي الخلافة. فقد كانت له مشية مخصوصة تعرف بالمشية العمريّة، يرفل في النعيم شأن أبناء الأمراء والخلفاء. يقول الراوي واصفا حال بطل السّيرة قبل حصوله على لقب أمير المؤمنين: «ثمّ ولي عمر المدينة فسار بأحسن سيرة. وكان مع ذلك يعصف ريحه ويرخي شعره ويسبل إزاره ويتبختر في مشيته »(٢) ويقول أيضا:

«وكان عمر بن عبد العزيز أعظم أمويّ ترفّها وتملّكا غذيّ بالملك، نشأ فيه لا يُعرف إلاّ وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الّذي يمرّ فيه ويمشي مشية تسمّى المشية العمريّة» (٣).

ولم يبق له شيء من ذلك عدا المشية حين اعتلى سدّة الخلافة. فقد تخلّى عن سائر مكوّنات أبّهة ملوك بني أميّة ببيعها أو ضمّها إلى بيت مال المسلمين. يقول الراوي واصفا تخلّي عمر عن إكسسوارات الملك من سرادق ومراكب وحجر:« ولمّا دُفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز فقربت إليه المراكب فقال: «ما هذه؟ قالوا: مراكب لم تركب قطّ يركبها الخليفة أوّل ما يلي فتركها وخرج يلتمس بغلته وقال: يا مزاحم ضمّ هذه إلى بيت مال المسلمين. ونصبت سرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد كانت تضرب للخلفاء...فقال: يا مزاحم ضمّ هذه إلى بيت مال المسلمين. ثمّ ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الّذي لم يجلس عليه أحد قطّ، يُفرش للخلفاء أوّل ما يلون. فجعل يدفع ذلك برجله حتّى يفضي إلى الحصير. ثم قال: يا مزاحم ضمّ هذه إلى بيت مال المسلمين » (٤).

واعتمد الراوي في تجريد بطل السّيرة من مظاهر الزينة والأبّهة الملوكيّة على مجموعة من الوقائع، فقد جدّ بنو أميّة في إغرائه بالعديد من طيّبات الحياة ومباهجها، بيد أنّ كلّ محاولتهم كانت تنتهي كالعادة بالبيع أو العتق أو ضمّ المركوب والملبوس والموطوء إلى بين مال المسلمين،ناهيكم أنّه قطع

(١) تتحدّد العناصر السينوغرافيّة– المسرحيّة بكلّ مكوّنات الديكور وعناصر الزينة والأبّهة الّتي تصحب عادة ظهور الملوك والقادة، انظر: ابن خلدون عبد الرحمان، مقدّمة ابن خلدون، تونس مؤسّسة باباي للنشر والتوزيع والطباعة، د.ت الفصل السادس والثلاثون، في شارات الملك والسلطان الخاصّة، ص ٢٨٦. ويراجع أيضا: Faure Guy-Olivier. Balandier (Georges) Le Pouvoir sur scènes . In: Archives de sciences sociales des religions, n°53/2, 1982. p. 237

(٢) أبو محمد، بن عبد الله، بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، م.م، ص ٢١.

(٣) أبو محمد، بن عبد الله، بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، م.م، ص ٢٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٣.

مع الأداب السلطانيّة ونصائح الملوك وما تقتضيه مراسم التشريف والقعود والجلوس، فقد طلب إلى الحرس ألّا يقوموا إليه وكان يقول لهم: «لا تبتدئوني بالسّلام إنّما السّلام علينا لكم...لست بخيركم وإنّما أنا رجل منكم» [١].

أوردنا الشّاهدين السابقين لأنّهما يرسمان لنا مشهدا طريفا يذكرنا بمشاهد مأساويّة مدارها معقود على صورة الملوك وهم يزاحون عن عروشهم فتُنزع عنهممكوّنات الأبّهة الملوكيّة،سواء زمن الخلع أو التمثيل والتنكيل أو وهم مسجون في بياض الموت أو سواده أو لونه الأرجوانيّ...وتبدو صورة الملك المنزوع الأبّهة في هذا المنطق المقلوب، مماثلة لصورة الملك العاري على حدّ استعارة ماري جوزي موندزان Marie- josé Mondzain[٢]. معنى ذلك أنّ سقوط مكوّنات الأبّهة عن جسد الملك يحجب منه جسده السياسيّ فلا يرى منه إلاّ جسده الطبيعيّ المبذول للضعف والهزالوالموت والفناء. تبدو هذه السّيرة للوهلة الأولى على طرف نقيض مع ضرب آخر من السيّر المفردة للحكام، نقصد السّير الّتي تُظهِر الصّورة المنسجمة مع التصوّر الرسميّ لصورة القادة والملوك والشخصيّات الحاكمة. فهي تظهر من صورة الحاكم وجهه الطبيعيّ الحقيقي، يحفزها في ذلك حسّ أخلاقيّ اعتباريّ، فتغدو صورته ممثّلة للحقيقة في بداهتها، وكأنّما بساطة الحاكم من صميم بداهة الحقيقة وبساطتها، لا تعقيد ولا تعميّة ولا إلغاز. وإذا كلّ مبالغة في الخرّق والتنبيل لا تعدو أن تكون زيفا وبهتانا تؤكده مواقف الرفض الصادرة عن بطل السّيرة. إلاّ أنّنا متى جودنا النظر، ألفيناها وثيقة الصلة بالسلطة وبعملها. وهو ما سنعمل على تحليله في الفقرة التالية.

لا يذهبّن في ظننا أنّ سيرة عمر بن عبد العزيز تتقاطع كلّ التقاطع مع تلك المشاهد المأساويّة الّتي تعرضها لنا مسرحيّات شكسبيرWilliam Shakespeare [٣] أو الأخبار الّتي تصوّر ملامح الجسد الطبيعيّ الّذي يعتريه الضعف والبكاء فيخرج إخراجا يزري كلّ الإزراء بشخصيّة الحاكم على نحو ما نجده في مقامات الزّهاد حينتطرق الملوك أبوابهم وتقطع عليهم خلوتهم فينتصبون لهم

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٥- ٣٦.

(2) Mondzain,Marie-José:
- 2002,L'image peut-elle tuer ?, Paris, Bayard,
-2003 , Le Commerce des regards, Paris, Editions du Seuil.

(3) Shakespeare William, 1998 , La Tragédie du roi Richard II, Trad. de l'anglais par Jean-Michel Depart, Édition de Margaret-Davies, Collection Folio théâtre (n° 44),Paris Gallimard.

مذكّرينبتفاهة منزلتهم البشريّة ويظهرون لهم في مراياهم، جسدهم الطبيعيّ طالما أنّه لا سلطةلهم عليهم(١).

تحافظ هذه السّيرة رغم بساطة شخصيّة عمر بن عبد العزيز وعرائه من سائر مكوّنات الأبّهة السلطانيّة، على ملامح جسده السياسيّ مستعيظة عن شارات الملك الماديّة بشارات أخرى متحتها من فضاء قيميّ اعتباريّ. وقد لا نعدم الصّواب إن قلنا إن هذه الاستعاضة تعدّ خصيصة تمثليّة في بناء التخييلات السياسيّة التي ترسم صورة الإمام العادل والصالحين من رجالات العلم والتصوّف. وإذا سيرة عمر بن عبد العزيز، صورة ملك منزوع الأبّهة الملكيّة الماديّة، ملتحفا بأبّهة أخرى، قدّتها القيم الاعتباريّة ولاسيّما قيم الزهد. وبفضلها استعاد ما خسره من هويّة الملوك المتوّجين. ولم يكن عراؤه هاهنا عراء طبيعيّا محضا، إذ إنّ العراء الخالص قسيم العدم والغياب، ولا يتحقّق إلا زمن الموت. ومع ذلك فإنّ طقوس الدفن والأخبار الّتي تنقل موت الملوك تجعل الجسد السياسيّ ملازما لشخصيّة الحكام لا يفارقهم إلا بموارتهم التراب أو قطع رؤسهم والتمثيل بجثثهم.

إنّ الملك، حضور مكثّف شأنه شأن كلّ سلطان، آفته الغياب والاحتجاب. لهذا الاعتبار يبطل الجسد العمريّ أن يكون جسدا عاريّا، لأنّ العراء الخالص نفي للحقيقة. وبمقتضى استبدال شارات الملك بشارات أخرى تنتحتها الصفات الأخلاقيّة الزهديّة، تنكشف لنا علاقة هذا الجسد بالحقيقة شأن كلّ جسد يوثّق صلته بنسق اللامرئيّ، نقصد الغيب. فهي تعرض حقيقة الشخصيّات الحاكمة من خلال إظهارها عارية من كلّ مكوّنات الأبّهة السلطانيّة « Insignes de pouvoir ».

وهي حقيقة الكائن البشريّ الّتي لا تحتاج إلى علامات أو زينة لتسفر. وتؤكدها المواقف العمريّة الّتي تضع حقيقة الجسد السياسيّ وما يقترن به من مراسم سلطانيّة، موضع تساؤل. فقد انزاحت عن التصوّر الرسميّ للقوّة وصورة أسلاف الخليفة الأمويّ، وكأنّها تستبدل نظاما للحقيقة السياسيّة بنظام آخر بعيد كل البعد عن شبـــهة الخلافة في صيغتها الملوكيّة الكِسْرَوِيَّة. ونفهم هاهنا رفض عمر بن عبد العزيز لقب الخليفة واستبداله بلقب أمير المؤمنين. ولا يعدو هذا القبول أن يكون في حقيقة الأمـــر ضربا من التمويه الّذي تلجأ إليه كلّ ســـلطة لينفق عملها. فبطل السّيرة قَبِلَ ضمنا بأن يخـــسر اســـمه الأوّل « عمر بن عبد العزيز» فهو الّذي يمنحه وجـــودا طبيعيّا مرجعيّا ويجعل

(١) العادل، خضر، الأدب عند العرب، مقاربة وسائطيّة، تونس كليّة الآداب منّوبة، دار سحر للنّشر. الطبعة الأولى ٢٠٠٤، ص ص ٤٠٦- ٤١٢.

منزلته من عالـم الموجودات تماثـــل منزلة الكيانات الفيزيائيّة أ وليســـت الأســماء معيّنات صلـــــبة « Rigid Designators» تحيل على ذات الموضوع في سائر العوالم الممكنة(١).

وبخسارة اسمه يطاله الخصاء الرمزيّ« Castration Symbolique » (٢) أي ذلك العمل الّذي يفسح المجال أمّام تشكّل هويّة أخرى على نحو من الغيريّة الراديكاليّة(٣). ويبطل عمر بن عبد العزيز بهذا العمل أو الخسارة، رغم إغراقه في الزّهد، أن يكون جسدا طبيعيّا، بل هو صورة بمعنى هو تشكّل رمزيّ، مثله مثل صاحب كلّ سلطة لا يحيا إلاّ بالصّورة وفي الصّورة، إذ إنّ الألقاب التشريفيّة لا تحيل على الأعيان والأشياء الماديّة وإنما تحيل على تمثّل ثقافيّ نفسيّ، ونحن لا ندرك شخصيّة الحاكم في ذاتها وإنّما نعيها ممثّلة بالقصّ والنحت والرسم والصّورة والقوانين والأعراف وكلّ ما يُراد لنا أن نعرفه عنها.

تتماثل في ضوء هذا التصوّر السيميولوجيّ شارات الملك والصفات المسندة إلى بطل السّيرة. فكلاهما يتحوّل من عالم اللامرئيّ إلى عالم المرئيّ. أمّا القاسم المشترك في هذا التحوّل فهو نظام الصّورة والصناعة والتمثّلات الرمزيّة. فإذا كان العراء الأنثويّ مرتبطا بتمثّلات اللّذة وأشكال تحقّقها... فإنّ العراء السلطانيّ يرتبطّ بتمثّلات أخرى بعيدة كلّ البعد عن التصوّرات الجنسيّة. وهي تمثّلات أخلاقيّة أخرويّة ذات طابع اعتباريّ.

تُخرِج أحوال الزّهد والتعفّف والتبتّل والإسراع إلى الصالحات، جسد عمر بن عبد العزيز السياسيّ في صورة الجسد الصوفيّ الطهرانيّ الملائكيّ. فبعد أن طاله عمل الخصاء الرمزيّ بتولّي الخلافة، غدا جسدا لا يعرف شيئا عن أحوال الذكورة والأنوثة شأن الملائكة. ويجد هذا الأمر مصداقه في اعتزاله النساء. تقول زوجته متحدّثة عن علاقتها الشرعيّة به« ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتّى لقي الله غير ثلاث مرّات. وقالت أيضا: ما اغتسل من جنابة حتّى مات. »(٤).

---

(1) Kripke Saul, 1980, Naming and Necessity, Harvard University press: p. 22.

(٢) يقصد بالخصاء في التحليل النفسي ما يمكن أن يثيره فصل الطفل عن أمّه من تخييلات وشعور بالنقص ومعاناة... فالكينونة لا تتشكّل بما يمتلكه الفرد وإنّما بما يخشى فقدانه أو انتزاعه منه. Richard Jean-Tristan , Clinique de la castration symbolique, L'Harmattan, 2000 p 11- 12 .

انطلاقا من التصوّر السابق يغدو الخصاء الرمزي ضربا من التغيير الّذى يطرأ على الهويّة وتوقعه المعتقدات القوانين والمواضعات. فهو ضرب من التحوّل في الهويّة وفي تمثّل الذات للجسدا.

(3) ISRAEL Lucien, Le désir à l’œil, Séminaire 1975-1976, Arcanes, Paris, 1994, p. 47.

(٤) أبو محمد، بن عبد الله بن الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، م.م، ص. ٤٤.

غني عن البيان القول إن اعتزال عمر زوجته ليس من الصلاح في شيء ولا يمكن أن يجد تبريره إلاّ في الخصاء الرمزي الّذي تترجمه مجموعة من الأعمال كالإقلال في الأكل والشرب ووطء النساء والتحكّم في سائر شهوات النفس. يقول ابن رزين الكاتب« فليبدأ الملك بسلطانه على نفسه يستقم سلطانه على غيرها» [١]. وبذلك يسيطر صاحب السّلطة على كلّ أشكال ضعفه ويجد الجسد السياسي سبيله إلى التخلّق فيتعالى على كلّ ما من شأنه أن يذكّره ببشريّته أو جسده الطبيعيّ. وقد لا نركب الشطط إذا اعتبرنا أنّ اعتزال عمر النساء، يجعله يماثل في اكتفائه بذاته طائر الفينيق على حدّ تعبير ماري جوزي موندزان Marie-JoséMondzain وهي تفسّر شوق أصحاب السلطة إلى الخلود. ولا نزعم أنّه هاهنا شوق معلن وإنّما هو شوق مستكّن في اللاوعي السياسيّ للحكّام[٢].

بناء التنضيد الغرضي

لا يجد الدارس كبير العناء في ملاحظة أثر طبيعة الحديث الشفاهيّة في بناء هذه السّيرة، ذلك أنّ الراوي لم يسلك في بناء وقائعها منطق التعاقب السرديّ، فجاءت مقاطعها خاضعة للاستطراد، عمدة القول في كل حديث. لكن لا يعني هذا أنّها خالية من كلّ منطق. أمّا الّذي قادنا إلى هذا الإقرار، فهو أنّ راوي السّيرة يلجأ مرّة إلى الانتقاء والاختزال، فلا يسرد من الواقعة إلاّ ما يذكّرنا بوحدة الغرض، وقد يعمد مرّة ثانيّة إلى التفصيل القائم على الاستطراد إلى الأسباب والمبرّرات والمآلات. وقد يمضي مرّة ثالثة إلى التنويع في روايات ذات الواقعة. وعلى الرغم من هذا التنوّع في عرض أحوال صاحب السّيرة، فإنّها لا تخرج في الجملة عن وحدة الغرض أو القيمة الّتي تبرز من صاحب السّيرة جسده السياسيّ

(١) ابن رزين الكاتب، آدب الملوك، دار الطليعة للطّباعة والنّشر، تحقيق جليل العطيّة، بيروت لبنـان، الطبعة الأولـــى ٢٠٠١ ، ص ٥١.

(2) MondzainMarie-José, 2003 , Le Commerce des regards, Editions du Seuil, ISBN, p p 97- 98.

ويبدو هذا الاكتفاء أوضح في الجسد السياسي لأباطرة بيزنطا ورثته التيولوجيا السياسيّة الغربيّة الّتي تظهر الجسد السياسيّ في صورة الجسد ذي الجنس المزدوج Bisexuelle ولا يفهم هذا الازدواج على أنه ضرب من التخنيث أو ما شابه ذلك من العيوب الخلقيّة وإنّما يفهم في ضوء اتّسام الجسد السياسيّ بطابع الخلود مثله في ذلك مثل طائر الفنيق الّذي يبعث ذاته بذاته من ثنايا رماده وهو لا يحتاج إلى الأنوثة بما تدلّ عليه الأنوثة من حياة وولادة مادام يحملها في ذاته. طابع الخلود هذا يؤكّده التسلسل النسبي ومبدأ التوريث وهو خلود مخيّل تدعمه المؤسسّة وما تلك الصفات والقيم إلا صوت المؤسسة الّتي تعمل على إدامة السلطة. فصاحبها لا يحكم بذاته المتفرّدة، وإنما بذات متلبّسة بمؤسّسة الحكم.

الطهرانيّ. ويسمّي نور الدين بنخود هذه الطريقة في البناء بالتنضيد الغرضيّ(١)، وحسبنا أن نتوسّل بالحاشية لنتبيّن هذا المنطق.

يقوم بناء التنضيد الغرضيّ على ردّ ما يقوم به عمر من أعمال، إلى غرض مركزيّ واحد، هو عدل الإمام. ويتفرّع بدوره إلى مجموعة من الأغراض الدنيا كصيانة الفرج واعتزال النساء والإقلال في الأكل والتخرّق في اللّباس. ومنها نذكر العناوين الآتية: حكاية عمر مع الهلاليّة، المشية العمريّة، اعتذار عمر إلى سعيد، بشارة الخضر لعمر بالخلافة، انصرافه عن مظاهر الخلافة، تواضع عمر وإصلاحه السّراج، اعتزاله النساء.

وإذا قارنا بين هذه السّيرة المتقدّمة في مجرى الزمان– توفي مؤلّفها أبو محمّد عبد الله بن الحكم سنة ٢١٤هجريّا– من جهة نظام التغريض وبعض السير المتأخرة من مثل سيرة بدر العيني، «السّيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد، الشيخ المحمودي»(٢)، خلصنا إلى أنّ هذا الشكل من العنونة أو بالأحرى التغريض يمثّل بدايات تشكّل بنية التنضيد الغرضيّ في السيّرة المفردة للحكام، أذ أصبحت العناوين أمتن صلة بمقومات الغرض بفضل توزّعها على أبواب وفصول تعرض التسميّة والألقاب والكنى والأعمال والصفات ومنزلة بطل السيرة منى ملوك عصره والملوك السّابقين... ويسمّى ميخائيل باختين Mikhaïl Bakhtine السّيرة الّتي تنهض على بنية التنضيد الغرضي وتوزّع محكيّها على أقسام، السّيرة التحليليّة «Biographie d’Analyse»(٣). ومن هذه الأقسام، النَّسب، العلاقة مع الأصدقاء، الوقائع والحروب، الفضائل، الملامح الجسديّة. وتستخلص ملامح الشخصيّة المترجم لها من سائر مراحلها العمريّة، دون مراعاة أيّ شكل للتّعاقب الزمنيّ. معنى ذلك أنه بإمكان القسم الواحد أن يجمع بين أحداث غير متجانسة زمانيّاً. أمّا المقصد من إيرادها فهو تمثيل الأحوال لا الوقائع والأحداث.

---

(١) بنخودنور الدين،خصائص الكتابة في السّيرة في الأدب العربيّ القديم من خلال السّير المفردة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللّغة والآداب العربيّة، إشراف الأستاذ محمّد القاضي، جامعة منوبة، كليّة الآداب والفنون والإنسانيات ٢٠٠٦–٢٠٠٧ ، نسخة مرقونة.ج ١ ص١٣٤. ويسم البنية الّتي تتوافر على التّوزيع الغرضيّ والترتيب القائم على التعاقب الزمنيّ بالبنية المختلطة.

(٢) العينيّ بدر الدين، السّيف المهنّد في ســـيرة الملك المؤيّد، تحقيق فهيم محمّد شلتوت، القاهرة دار الكتاب العربـــــيّ، ١٩٨٦.

(3) BakhtineMikhaïl 1978,Esthétique et théorie du roman, traduit du Russe par Daria Olivier, préface de Michel Aucouturier, Éditions Gallimard, p 288

ويحوّل مقصد تمثيل الأحوال، العناوين إلى قالب نوعيّ، ما إن يقع على الشخصيّة المترجم لها حتّى يحوّلها إلى شخصيّة مفارقة. أمّا ضربة البداية في هذا التحويل فهي تأصيل النسب برده إلى شجرة الخلفاء والصالحين عموما، ذاك ما تجلوه الأخبار التي تنتمي إلى جدول واحد، ألا وهو حكاية عمر بن الخطاب مع الهلاليّة وبداية تشكّل النطفة المقدّسة. وبتأصيل نسبه المحاط بهالة من التعجيب والاستباق، يتحوّل إلى شخصيّة مركّبة من جسدين.

وتتّضح ملامح وظيفة التمثيل وإظهار الصفات المفارقة أكثر، بانشداد الأخبار مهما شطّ بها الاستطراد، إلى ذلك الغرض. وإذا بالراوي في كلّ ذلك يشبه الرسّام الّذي يمدّ خطوط القوّة في اللّوحة وألوانها إلى نقطة انفلات «Point de fuite» واحدة، تؤلّف بين الألوان والأضواء والكتل. وبمقتضى هذا التصوّر تتّخذ الكتابة التاريخيّة في هذا الضرب من القصّ المرجعيّ–التخيليّ، صيغة سدّ المحلاّت الشاغرة. وتؤكّد هذه الطريقة في التوزيع، وجود قالب نوعيّ يقدّ الراوي من تصاريفه، الجسد السياسيّ لعمر بن عبد العزيز. وهو ما يؤكّده لويس ماران Louis Marin لمّا تناول بالتحليل الخصوصيّة النوعيّة للقصّ التاريخيّ إذ يقول في ذلك:

"يمثّل السّارد الشخصيّات التاريخيّة بدمى العروض الّتي تشبهها فيختار الأغراض (الولادة والأعمال الباهرة والانتصارات ...). ثم يقترح هذه النماذج المختزلة على القارئ. ويدسّها في مقاطع من البناء السرديّ العامّ منتقاة بدقّة"(١).

يتحصّل لدينا مما تقدم، أن كاتب السيرة جدّ من خلال ميثاق الصدق والواقع، في إقناعنا بالتزامه بدور المحقق التاريخي الذي جمع أخبار عمر بن عبدالعزيز مستنداً إلى مراتب التحمل وجهات الصدق والمعرفة. إلا أنَّ ما عرضه من نتف وأخبار لا يعدو أن يكون بعبارة بيار بورديو Pierre Bourfieu وهما بيوغرافيّا، أي أنها لم تكن سيرة حياة طبيعية(٢)،وإنّما كانت سيرة جسد عار من الأبّهة الملكيّة الماديّة. لكن هذا العراء لم يكن عراء خالصا، فقد قدّت له عناصر الخصاء الرمزيّ جسدا سياسيّا آخر ستر عريه، فنابت قيم الزّهد والتعفّف، شارات الملك من تاج وصولجان ولباس خزّ... ولئن بدا ظاهر هذه السّيرة معربا عن محاولة التحوّل بإدراكنا للشخصيّات الحاكمة، من طور التقديس إلى طور إدراكها على نحو عاديّ، فإنّ هذا الأمر لا يخلو من مخاتلة ومكر، دأب كل سلطة

(1) Marin Louis1981 , Le portrait du roi,Paris, Éd de Minuit .coll. le sens commun, p. 78.

(2) Bourdieu Pierre, L'illusion biographique. In: Actes de la recherche en sciences sociales.juin 1986,Vol. 69-72.

حين تستكنّ في الخطاب. فسيرة عمر بن عبد العزيز، لم تذر في حقيقة الأمر مدار القداسة والنمذجة ولم تصوّر لنا حقيقة الشخصيّات الحاكمة على نحو ما يظهره هجاء الملوك أو مقامات الزّهاد. لذلك نعدّها واحدة من أشكال التخييل السياسيّ الّذي يسوّي للشخصيّات الحاكمة مرايا تتطلّع فيها إلى جسدها الثاني.

٢- سيرة التعاقب الزمنيّ

مثّل السيّاق التاريخيّ الّذي ألّفت فيه هذه السّيرة ،إطارا مناسبا للتخييل السياسيّ ونشاط المخيال السلطويّ. فقد برز في عصر المماليك الصراع بين المسلمين والفرنجة من جهة وبينهم وبين المغول من جهة ثانيّة، ممّا يرجّح فصول السّيرة للاصطباغ بطابع ملحميّ تجلّى بصفة رئيسيّة في السيّر الشعبيّة كسيرة «الملك سيف بن ذي يزن فارس اليمن» وسيرة «ذات الهمّة» والسيرة الهلاليّة.

١. بناء السيرة

لم تكن سيرة الظاهر ذات بناء سرديّ طويل النفس، قائم على ضرب من التصعيد الدرامي. وذلك بسبب اعتماد صاحبها على الأخبار الّتي عرضها في البداية وفق منطق التنضيد الغرضيّ. إلاّ أنّه لم يلبث أن خلص إلى ترتيب الوقائع ترتيبا تاريخيّا دون أن يبلور تركيبة حدثيّة أو بالأحرى حبكة سرديّة تتابع فيها الأحداث تتابعا عليّا أو سببيّا، حتّى أنّنا نكاد لا نجد رابطا يصل بين الخبر والخبر والذكر والذكر، عدا شخصيّة بطل السّيرة أو تتابع السنين. لهذا الاعتبار بدت هذه السّيرة من جهة البناء من صنف البناء المختلط فهي تجمع بين التنضيد الغرضيّ والتتابع الزمني دون الاستناد إلى حكبة متينة فيها الشيء الكثير من الصنعة.

يبدو أنّ هذا البناء مناسب لجنس السّيرة ولاسيّما المفردة للحكّام. فهي مركوزة في المقام الأوّل على مكوّن الشخص والصفات. ومصداق ذلك استهلال الراوي سيرته بمقدّمة يرسم في ثناياها ميثاق سيرته ويبرّر سبب تأليفها تنفيقا لها في سوق البيان. ثمّ يخلص منها إلى ضبط طريقة صعود بطله إلى سدّة الملك ولا يلبث بعد ذلك أن يسرد بعض الأخبار الّتي تظهر درايته الحربيّة وشجاعته كـ«ذكر خروجه للعربان وذكر ما فعله السّلطان مع الملك المعزّ وذكر خروج السّلطان إلى الكرنك» إلاّ أنّه لا يستمرّ على سرد الوحدات الخبريّة المتّخذة صيغة اللوحة الّتي ترصف إلى جانب اللّوحة وفق منطق التجاور لا التتابع، وإنّما يقطعها بمجموعة من الفصول أو الأغراض المخصّصة لعرض صفات الظاهر

عرضا مباشر ويختار لها العناوين التالية « ذكر فصول يجب تقديمها هنا. وهو ما خصّ الله هذا السّلطان به من حسن السجايا والأخلاق والمزايا. فمن ذلك شجاعته...عفوه وحلمه... كرمه... عطاؤه... عدله... حسن معاملته...» [١].

وممّا يترتّب على إرجاء سرد الوقائع والأخبار، خدمة الوقائع المسرودة، الصفاتِ والأحوال الّتي ينتقيها المنشئ ليتحوّل بالذات المترجم لها، من طور الشخص التاريخيّ الطبيعيّ إلى طور الشخص السياسيّ. فسرديّة الأخبار تخدم ثبات الصفات والمتخيّل الرسميّ للقوّة. وبتقديم الصفات على الأحداث يتراجع القصّ مفسحا المجال أمام تشكّل الصّورة الرمزيّة الّتي تصطنعها السّيرة للشخصيّة الحاكمة وفق تصوّر رسميّ للقوّة ما فتئ أدب السّيرة يدعمه. وهو تصور ينهل من مخيال لا يرى البطولة إلاّ في الفتوّة والنبوّة. وبذلك تتمحّض السّيرة للتخييل بل إنّها تطوّع التحقيق وتسوقه في مساق الوظيفة التخييليّة. وإن رمنا استخدام المصطلحات المنطقيّة قلنا إنّ بنية هذه السيرة بنية استدلاليّة، تحقّق فيها الوحدات الخبريّة أحوال الشخصيّة وتتنزّل منها منزلة الماصدقُ أي ما يمتلك وجودا مرجعيّا من المفهوم نقصد التصوّر والتمثّل. ولعلّ ما يبرّر هذا المنزع الحجاجيّ الاستدلاليّ، هو ارتباط السيرة بالحروب والنزاعات الداخليّة والخارجيّة. فبطل السيرة يجندل أقرانه ويحكّم السيف في رقابهم. أمّا مؤلّفها فيحوّلها إلى ساحة جدال تشبه المحفل أو السّاحة العامّة وينتصب خطيبا مستدلا على عظمة ملكه وعدله وكرمه. يقول مؤلّف السّيرة «ومن أكبر الأدلّة على مروءة هذا السّلطان أنّه أقام في الغربة مدّة سبع سنين وكابد القلّة وهو لا يفارق خواشداشيته (حاشيته). وكان كلّما يراهم تضيق صدورهم يضيق صدره»[٢].

٢. الميثاق السيريّ

يذهب جورج ماي إلى:

«أن مغامرة كتابة البيوغرافيا «Biographie» أو التّرجمة لحياة شخص مّا، غالبا ما تخضع إلى قناعتين أساسيتين: أولاهما الاعتقاد بأنّ حياة الإنسان قابلة لأن تروى أو أن تترجم في ألفاظ. وثانيهما الوثوق بأنّ تحويل التّجربة المعيشة إلى كلمات ترسيخا لها أي الانتقال من التّواتر الشفويّ إلى التّدوين

(١) ابن عبد الظاهر محيّ الدين، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، م. م ص ص ٧٤- ٧٩ لسّاحة.

(٢) محيّ الدين بن عبد الظاهر، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، م. م ص ص ٧٣- ٧٤.

يساهم في خلق حياة جديدة ويمنح الشخصيّة المحتفى بها حصانة مضاعفة، تحول دون موتها الحقيقيّ وسقوطها في النّسيان»[١].

ويبدو هذا الأمر جليّا في مقدّمة مؤلف سيرة الظاهر بيبرس إذ يقول: «وبعد فإنّه لمّا كانت السّيرة طراز الدول ومرآة يرى الناظر فيها أحوال الملوك...وجب أن تسطّر سيرتها لتبقى على مرّ الأيّام»[٢]. ويبدو هذا الجزء من الميثاق السيري الخاصّ بالسّير المفردة للحكّام، متواترا، من ذلك أنّ ابن مرزوق يقول معبّرا عن مقصده من تدوين سيرة أبي الحسن المرينيّ «رأيت تخليدها في الدّفاتر أعمّ نفعا وألصق بالخواطر وليتحدّث بها في مستقبل الأزمنة البادي والحاضر ...» [٣]. ولعلّه من المفيد أن نشير إلى أنّ ما يخلد، ليس السّيرة وإنّما صورة صاحب السّيرة، وهيمت صالحة مع التصوّر الرسميّ للقوّة.

ينطوي هذا التصريح على أمرين: أوّلهما، الإقرار بأنّ حياة الظاهر بيبرس تتوافر على ما يستحقّ الرّواية، إذ إنّ السّيرة تدلّ على الاحتذاء والقدوة. لكن هذا لا يعني أنّ المقتدى به قد يكون من العامّة وإنّما هو من خاصة الخاصّة وتتقدّمها الملوك والحكام والسّلاطين، مادام التاريخ عند من يتصدّى للكتابة عن السّلطان، يُختزل في تاريخ الحكّام، فهم أصحاب القرار والفعل.

تتوافق هذه الرغبة أيضا مع الشوق الّذي يسكن صاحب كلّ سلطة إلى الخلود، حتى أنّه قد يسهر على تدوين سيرته بذاته ويصطنع لها الأديب المناسب وكأنّه قد أدرك أنّ القوّة حين تتجذّر في العلامة اللّسانيّة، تدخل نسقا من الدوام، فتتجدّد مع كلّ قراءة أو نسخ وإعادة نسخ. وقد لا يكون من خطل الرأي أن نعتبر هذه الرغبة بديلا استعاريّا لذلك الجسد السياسيّ الّذي لا يفنى بفناء مرتكزه الماديّ. أمّا إشارة محيّ الدين بن عبد الظاهر إلى علاقته المباشرة بالملك الظاهر، فتفصح عن فصل آخر من فصول الميثاق وهي الصدقيّة. وبيانها أنّ من دوّن السّيرة، عاين عن قرب فضائل الملك وخبرها ويقول في ذلك «وكان المملوك الأصغر مشاهدا سفرا حضرا وعاينه لا خبرا والمطّلع على غوامض أسرارها وتسطير مسارها» [٤].

(١) ماي جورج: السيرة الذاتيّة، ترجمة محمّد القاضي وعبد الله صولة، قرطاج، بيت الحكمة، ١٩٩٢، ص١٦٨.

(٢) محيّ الدين بن عبد الظاهر، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، م. م ص ٤٥.

(٣) ابن مرزوق، محمّد التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن, دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ١٩٨١، ص ٩٤.

(٤) ابن عبد الظاهر محيّ الدين، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، م. م ص ٤٦.

٣. السّيرة وعمل التخييل السياسيّ

أ- تقديم الأوصاف على الأعمال

ذكرنا ونحن نستقرئ بناء السّيرة، أنّ الراوي يقدّم الأحوال على الأعمال واعتبرناها خصيصة نوعيّة في السّير المفردة للحكّام، ومؤدّاها أنّ الكتابة عن الملوك وذوي النفوذ تتلبّس بوظيفة إنجازيّة نسمها بإيقاع الرهبة الّتي لا يقوم السلطان دونها. وبتغليب الأحوال علىالأعمال وجعل الثانية خادمة للأولى، تتضح ملامح طريقة كتّاب السّيرة في تدوين سير ملوكهم. وهي تشكيل السّلطة بالصّور. وهاهنا نجد ضربا من الاسترسال بين سيرة الملوك والآداب السلطانيّة. يقول كمال عبد اللطيف:

«في الآداب السلطانيّة تختلط السيّاسة بالصوّر، صوّر التاريخ وصوّر الملوك والسّلاطين وصوّر الأمثال المستقاة من تجارب التاريخ. وتحتفل النّصوص بالصوّر أكثر من احتفالها بالتدبير في مستوياته الواقعيّة أو بالسياسيّة في مستوى تعين القول في حدودها النظريّة الخالصة أو في ضبط علاقاتها المتوتّرة والمهادنة في الوقت نفسه لدور المقدّس ودور العامل الدّيني في الشأن السياسيّ والممارسة السياسيّة» [١].

وتعدّ حكاية الأسد والغواص النموذج الأوفى لهذا الضرب من التناص بين القصّ والآداب السلطانيّة إذ وزّع السّارد فصولها وفق عناوين استقاها من هذه الآداب[٢].

ولا يجد الدارس صعوبة كبيرة في تعرّف مظاهر هذا الاسترسال، لاسيّما إذا كانت السّيرة من النوع القائم على التنضيد الغرضيّ أو البناء المشترك. فقد جدّ الراوي في انتقاء الأعمال الّتي تتوافق مع ذلك الفصل الّذي توسّط السّيرة وخصصّ لتقديم صفات ملكه[٣]. وتكمن قيمة هذا الأسلوب الّذي وسمناه بتشكيل السّلطة بالصّورة، في وظيفة مكوّن الصّورة ذاته، ذلك أنّها تحيل على شيء غائب غير مرئيّ لائذ بالصّمت، لا يمكنه أن يتعيّن إلاّ بالتّمثيل وفي التّمثيل. أمّا المسؤول عن عمل التأثير فهو قدرة الصّورة على تخييل القوّة من خلال الأحوال والأعمال الّتي يتخيّرها الراوي. فهو لا يسرد كلّ شاردة وواردة من أحوال بطله وأعماله وإنما ينتقي ما يتوافق منه مع متخيّل القوّة وما يقترن بها من نماذج

---

(١) عبد اللّطيف، كمال، في تشريح أصول الاستبداد، قراءة في نظام الآداب السلطانيّة ، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر بيروت. الطّبعة الأولى نيسان (إبريل) ١٩٩٩، ص ١٢٨

(٢) الأسد والغوّاص، حكاية رمزيّة من القرن الخامس الهجريّ، تحقيق رضوان السيّد، بيروت، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، الطبعة الثانية ١٩٩٢

(٣) ابن عبد الظاهر، محيّ الدين، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، م. م ص ص ٧٤- ٧٩.

وصوّر معياريّة يُجليها الفصل الّذي خصّصه لخصال بطله. وهو عمدة اختيار الوقائع والأعمال وكذلك مصادر التأليف.

ب- مصادر التأليف

يُعرب فعل الاختيار المحكوم بالتّمجيد عن تبادل للأدوار بين المؤرّخ والأديب. فالأوّل يتحرّى الصّدق والمرجعيّة فيستند إلى المعاينة والمصاحبة. ويسرت له هذه الصحبة والعمل بديوان الإنشاء، مشاهدة أحوال بطله والاطّلاع على الوثائق الّتي مكّنته من كتابة السّيرة. ومن الوقائع الّتي حضرها وجعلته مصدر رواية، نذكر اشتراكه مع جيش الظاهر بيبرس في «فتوح أرسوف». يقول في ذلك:

«قال القاضي محيّ الدين مؤلّف السّيرة: فتعسّفت أمّ الجبان ولقد رأيت السّلطان يبذل من نفسه كلّ مصون ويهوّن منها ما لا يهون وهو بمفرده ماش في يده ترس وهو تارة في السرب وتارة في الأبواب الّتي تفتح»(١).

ولا يقف تنويع مصادر التأليف على هذا المدى. فقد جعل من ملكه مصدرا يستقي منه مادة سيرته. من ذلك قوله «قال مؤلّف السيرة حسب ما أملاه عليه السلطان من لفظه»(٢) وإلى ذلك ألفيناه يحقّق بعض الوقائع أو أسماء الأمكنة بالاعتماد على معلومات اقتبسها من كتب التاريخ.

ومهما يكن من أمر مدى وجاهة صدقيّة هذه المصادر، فإنّ فعل الاختيار يفسح المجال للعمل الأدبيّ وإذا بالتأويل يخالط تحقيق الحدث التاريخيّ وتعلّق عليه مقاصد متّصلة بواحدة من وظائف الأديب الأثيرة ألا وهي التمثيل والتخييل. فهو يختار ما يراه مناسبا لكمال شخصيّة ملكه. لذلك سكت عن طفولته ونسبه المكتوم والحال أنّ السّيرة الأولى أفاضت في تمجيد نسب عمر بن عبد العزيز وخصّته بالفقر والفصول والأخبار. وما كان في حقيقة الأمر ليسكت لو لم يكن هذا النسب يشين ذلك الجسد السياسيّ الذي يخلو من كلّ ضعف أو نقص.

(١) ابن عبد الظاهر محيّ الدين بن عبد الظاهر، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، م. م ص ٢٣٧.
(٢) المرجع نفسه، ص. ١٢٨

يتخلّل العمل التأويليّ على حدّ عبارة ريكور Paul Ricœur سائر مراحل الكتابة التاريخيّة، ذلك أنّ المؤرّخ يعوّل على فعل الاختيار آن انتخاب المصادر واصطفاء الصيغة الّتي يراها أقدر على نقل الوقائع(١)، ويدعم هذا المنحى بذهابه إلى أنّ عالم التاريخ عالم الفعل والحركة، ينغمس فيه المؤرّخ ولا يمكنه أن يفارقه إلاّ بالأرشفة والكتابة الّتي تُبلّغه عالم القرّاء فتُدخله عالم الأدب(٢).

من هنا تتّضح العلاقة بين القصّ والحدث والسياسة. وهو ما ذهب إليه ريكورحين علّق على مقاربة برودال Braudel للحوليات «Annales» إذ رأى أنّ الرّهان في فهم المقطع التاريخيّ ينعقد على تدبّر العلاقة بين الحدث والقصّ وأوليّة السياسيّ على ما سواه من المكوّنات(٣)، ويعني هذا أنّ المؤرّخ لا يعرض الوقائع والأحداث دون الصّدور عن تصوّر مخصوص للسّلطان والواقع السياسيّ. وتأسيسا على هذا الاعتبار نرى أنّ السّيرة لا تعرض لنا الواقع في حدّ ذاته، ولا تصوّر الشخصيّة المترجم لها تصويراً يعرضها على نحو يجلو فرديّتها وإنّما تقدّم لنا صورة ممكنة عن الواقع وترسم لنا تخييلا سياسيّا يتوافق مع التصوّر الرسميّ للقوّة، نجده متجذرا في الصفات والأعمال الّتي تنمذج الشخصيّة.

وبفضل هذا الاختيار والمنحى التأويليّ التمثيليّ التخييليّ، تبطل الكتابة السيريّة المفردة للحكّام أن تكون من صميم الكتابة المرجعيّة الخالصة، فتخرج من دائرة الإبستمي، نقصد كلّ ما من شأنه أن يخضع للمقولات المنطقيّة كالصّدق والكذب والحقيقة والواقع، لتلتحق بدائرة البراكسيس Praxis وقد شكّلتها الأعمال الّتي لا تحقّق أثرا في نظام الاعتقادات دون الاستعانة بالذاكرة والمخيال الجمعيّ وما يستبطنه من نماذج مستقرّة في اللاوعي السياسيّ الخاصّ بالمجموعة الواحدة. وهذا من شأنه أن يفصح عن منزلة السّيرة من صناعة الاعتقادات السياسيّة. فهي ممارسة إنشائيّة تتمكّن المؤسّسة بواسطتها من إنتاج وإعادة إنتاج التّمثيل الرّسميّ للقوّة أو الصّورة الرّسميّة للحكّام، بقواعد تتحكّم في تحديدها مؤسّسة الكتابة بما هي إحدى مؤسّسات المجتمع الخياليّة.

---

(1) Ricœur,Paul 2000, La mémoire, l’histoire, l’oubli, Éditions du Seuil, p; 302- 303.
يذهب ريكور إلى أنّ كتابة التاريخ تمرّ بثلاث مراحل، مرحلة التوثيق والأرشفة – مرحلة التفسير والفهم – مرحلة التمثيل والإخراج الفنيّ أو الأدبيّ. ويؤكّد أنّ هذه المراحل لا تتابع تتابعا كرونولوجيّا وإنّما تتراكب وتتساوق. ويبرّر ذلك بتقديره أنّ من يفحص أرشيفا مّا يتبنّى مشروع تفسير ويصوغ بعض الفرضيات لفهم التّاريخ. ولا يمكن لأيّ كان أن يفسّر مسارا حدثيّا دون الاستناد إلى شكل أدبي.

(2) Paul Ricœur, La mémoire, l’histoire, l’oubli, op. cit .p p302- 303.

(3) Ibid. p.308

خاتمة:

ولئن كانت سيرة عمر بن عبد العزيز قائمة على منطق التّنضيد الغرضيّ واختلفت من جهة البناء عن سيرة الظاهر بيبرس القائمة على منطق التعاقب، فإنّها تشترك مع السّيرة الثانية شأن كلّ السّير، في وحدة البطل الّذي تنشد إليه جميع أحداث السّيرة ووقائعها. ورغم ما تطالعنا به السّيرة الأولى من أحوال عاطفيّة ونفسيّة، فإنّها لم توثّق صلتها بالإنسان الداخلي بما له من فريد الصفات والأعمال. وسواء أكان بطل السّيرة صاحب بأس وغلظة أمكان صاحب نسك وتعفّف، فإنّ صورته لم تخرج عن الحسّ المشترك والمخيال الجمعيّ، إذ استعادت على نحو صارخ نموذج النبوّة. وكيف لا يحضر هذا المخيال والحال أنّ كلّ شيء في المجتمعات القديمة، يجري في الخارج ولا حياة للفرد إلا في عالم الجماعة، وسط الفضاء العموميّ.

إنّ القاسم المشترك بين السّيرتين هو الجسد السياسيّ، واحدة تغطّيه بما تسنده إليه من صفات وأعمال جليلة وأخرى تبطل عمل الأولى بتعريّة حقيقته الخالدة. وكان الجسد في كلتا الحالتين، غير مرئيّ، ذلك أنّ عراء جسد الملوك شأن العراء الأنثويّ محكوم بالمتخيّل. وهو هاهنا متخيّل القوّة، سواء أكانت بطشا أم تنسّكا، مدام استغراق القيمة والذهاب بها إلى أقصى مدى يمكن أن تبلغه في سلّمها، يحوّلانها إلى توحّش، مثلها في ذلك مثل الذكورة الخالصة أو الأنوثة المحض.

ذلك ما تحصّل لدينا من قراءة السّيرة بالاعتماد على مقاربة تأخذ بأسباب التمثيل والتخييل وهويّة الشخصيّات الحاكمة القائمة على الازدواج والتراكب. فهي صورة وضرب من التخييل الّذي ترعاه مؤسّسة صناعة الاعتقادات، نعني الكتابة سواء أكانت تخييليّة أم مرجعيّة، أو لا يشترك المؤرّخ والأديب في وظيفة النقل والإبلاغ والانتماء إلى شجرة أسياد الحقيقة وسدنتها؟

المراجع

ابن عبد الظاهر محيّ الدين، سيرة الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٧٦م.

ابن عبد الله بن الحكم أبو محمد، سيرة عمر بن عبد العزيز رواية الإمام مالك بن أنس وأصحابه، رواية ابنه أبي عبد الله محمّد نسخها وحقّقها أحمد عبيد، مصر شارع الجمهوريّة، مكتبة وهبة القاهرة مصر الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

بنخود نور الدين، خصائص الكتابة في السّيرة في الأدب العربيّ القديم من خلال السّير المفردة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في اللّغة والآداب العربيّة، إشراف الأستاذ محمّد القاضي، جامعة منوبة، كليّة الآداب والفنون والإنسانيات ٢٠٠٦–٢٠٠٧م، نسخة مرقونة.

خضر، العادل، يحكى أنّ... مقالات في التأويل القصصيّ، سلسلة مقام مقال، دار المعرفة للنّشر – تونس، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

ابن رزين، الكاتب، آدب الملوك، دار الطليعة للطّباعة والنّشر، تحقيق جليل العطيّة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

عبد اللّطيف، كمال، في تشريح أصول الاستبداد، قراءة في نظام الآداب السلطانيّة، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر بيروت. الطّبعة الأولى نيسان (إبريل) ١٩٩٩م.

ابن مرزوق: محمّد التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ١٩٨١م.

ماي جورج، السيرة الذاتيّة، ترجمة محمّد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج ١٩٩٢م.

Bakhtine, Mikhaïl 1978 , Esthétique et théorie du roman, traduit du Russe par Daria Olivier, préface de Michel Aucouturier, Éditions Gallimard.

Bourdieu, Pierre, L'illusion biographique. In: Actes de la recherche en sciences sociales. juin 1986, Vol. 69-72.

ISRAEL Lucien, Le désir à l’œil, Séminaire 1975-1976, Arcanes, Paris, 1994

Kantorowicz, Ernst 1989, Les deux corps du roi, essai sur la thé ologie politique au moyen âge. Traduit de l'anglais par Jean -Philippe genet et Nicole genet. Ouvrage publié avec le concours du centre National des lettres. Nrf Éditions Gallimard.

Kripke, Saul 1980, Naming and Necessity. Harvard University press

Marin, Louis 1981, Le portrait du roi, Paris, Éd de Minuit .coll. le sens communN Mondzain, Marie-José :, L'image peut-elle tuer ?, Paris, Bayard. Le Commerce des regards, Editions du Seuil, ISBN Ricœur, Paul 2000, La mémoire, l'histoire, l'oubli. Éditions du Seuil,

Shakespeare, William 1998, : La Tragédie du roi Richard II, Trad. de l'anglais par Jean- Michel Depart Édition de Margaret-Davies, Traduction nouvelle. Édition bilingue Collection Folio théâtre (n° 44), Gallimard.

http://www.diwanalara